

## 144- الأسرة والثقافة والطب النفسى والإدمان (3)

## طقوس "السُّبُوغ"، وجدلية الانفصال/الاتصال

الأسرة الإنسانية هي المجتمع الصغير الذى يحتضن الناشئ فترة احتياجه لرحم اجتماعى ينمو فيه سنين طويلة، ووظيفة هذا المجتمع ليس مجرد إضافة حسابية لوظيفة أفراده، مثل أى وسط، الأسرة هي كيان ضام له شخصيته الكلية التى تتجاوز مجرد مجموع أجزائه.

هل يمكن للفرد البشرى أن ينشأ بدون أسرة؟

إذا كان يمكن للجنين أن ينمو تسعة أشهر ويولد بدون رحم لأم تحتويه فيصله من خلالها مشروع مقومات الوجود ثم يولد ليكون، إذا كان هذا ممكناً فإنه يمكن للكائن البشرى أن يوجد وينمو بدون أسرة.

هل كان لغرينوى - بطل رواية العطر لزوسكند - أسرة أصلاً؟ أو فى أى وقت؟ وحتى النهاية؟ هل كان له رحم أصلاً تحمله أم لها أحشاء وعضو اسمه الرحم؟ أم أن الأم نُجحت فى محو ما قامت به الفسيولوجيا والطبيعة رغماً عنها، هذه الأم القاتلة أبناءها، لم تُنخ لها فرصة قتل هذا الأبن الأخير قبل إعدامها، هي سمحت أن يتقيأه رحمها وسط بقايا السمك والعفن والقذارة.

لأن جرينوى لم يكن له أسرة هو لم "يكن" أصلاً، ثم هو لم يكن أبداً،

كل المهارات والنبوغ والعبقرية والتأله والقتل، لم تحقق له وجوداً بشرياً أبداً،

قتل العذارى ليخلق من أرواحهن عطراً يؤلّفه فيغنيه عن أن يكون له أسرة ليكون بشراً، فلم يحقق إلا العدم الساحر الذاهل.

فى النهاية استعادوه أكلة خوم البشر إلى رحم الناس حين التهموه حياً فى مقبرة الأبرياء، "ولأول مرة يشعرون أنهم فعلوا شيئاً عن حب!!"

مازلت أتساءل عن مغزى هذه العبارة التي انتهت بها الرواية، وعندى لها عدة تفسيرات غير ما حضرني الآن، حضرني أنهم ربما بفعلهم هذا، قد أرجعوه قسرا إلى رحم البشر من جديد، لعله يجد البداية داخل الناس، بشرا يولد بسماع، ويُستقبل برؤية، في أسرة (رحم اجتماعي) يتخلق فيها ومعها وبها، ليكون أحد أفرادها وليس إله زائفا معبودا في فراغ الضياع والعدم.

#### الخلاصة :

أن من ليس له أسرة، من ليس له رحم اجتماعي من البشر، فهو لا يكون أبداً

#### الافتراضات الأساسية

الافتراضات الأساسية لتكون الأسرة أسرة (صحية) بالمعنى المتقدم أى "رحماً اجتماعياً"، يمكن عرض بعضها فيما يلي:

- والدية مسئوله .
- مجال معرفي
- تواصل نمائي
- حماية مرفأية (من مرفأ)
- ولادة سليمة (سمح بالاستقلال)
- علاقة ممتدة

#### أولاً: معالم والدية (الجزء الأول):

يطلق لفظ والدية على الوالدة والوالد، وهذا أفضل من أن يطلق على الوالد والوالدة، فالأم ذات الرحم البيولوجي النفسى معاً، هي الأقدر على تحمل مسئولية النقلة إلى الرحم الاجتماعى (الأسرة)، وقد ركزت مدرسة العلاقة بالوضوع، وهى المدرسة التحليلية الإنجليزية (ميلان كلاين - جانرب - فيبيرن) على دور الأم فى القيام بهذه النقلة الصعبة والأساسية، وبرغم سلامة هذا التوجه من حيث المبدأ، إلا أن هذه المدرسة بالغت فى تحديد دور الأم حتى كادت تلغى دور الأب فى السنين الأولى، وهذا يعتبر عندى من أول التشوهات التى يمكن أن تلحق بالرحم الاجتماعى (الأسرة)، كما بالغت هذه المدرسة أيضاً فى نفي أو التهوين من دور البعد البيولوجى (التطورى فىلوجينياً، ووراثياً) بما ذلك اعتبارها أن الفكر الفريدى هو بيولوجى أساساً.

الانتقال من رحم الأم إلى رحم الأسرة عملية ليست بهذه البساطة، فالطفل داخل رحم الأم يمثل لها دعماً، وتفوقاً، وتألاً بشرياً طيباً،

ولنا أن نتوقع -أو نتصور- أنه بانفصال هذا الدعم الداخلى (السرى) عنها يحدث ما يلي:

(أ) إنها تقاوم الانفصال، في نفس الوقت الذي تفرح به وتنجزه،

ولعل آلام الوضع هي إعلان عن هذه المقاومة، في حين أن نجاح الوضع هو إعلان السماح بهذا الانفصال.

(ب) إنها لا تصدق هذا الانفصال بسهولة، وتكاد لا توافق عليه، حتى بعد أن يتم، لكنها تدعمه، فهي تحتاج إلى شحذ وعى الإدراك، وإطلاق مزيد من قدرات السماح في محيط من الأمان، حتى تصدق -جدا- أن هذا الانفصال هو حدث رائع أمين لصالحها، وصالح من انفصل عنها.

### دلالات طقوس (الولادة) وبعييدها

#### أولاً: أثناء الولادة وبعييدها

قمت بقراءة طقوس "السبوع" والولادة في مصر من هذا المنطلق على الوجه التالي:

1- قبيل الولادة وأثناءها تحضر أم داعمة للأم الوالدة (سواء كانت الأم الحقيقية أو أي أم بديلة)، مما يتيح لها أثناء طلق الولادة أن "تقطف" على صدر أمها، وهي مسندة ظهرها إليها في ثقة كافية، وقد قرأت ذلك باعتباره بمثابة الدعم الخارجي وهو يطمئن الوالدة إلى أن خروج الدعم الداخلي منها لن يخل بتوازنها لأن هناك في الخارج من يسندها ويساندها.

2- أثناء الولادة يتوأكب ويتناوب الأم مع السماح حتى ينتصر إعلان الخلق، وللأسف فإن الاستسهال الطبي التوليدي الأحدث فالأحدث يجرم أغلب الأمهات المعاصرات من هذه الخبرة الهامة، بإعطاء تخدير خفيف أو بالإكثار من عمليات القيصرية لأسباب ليست دائما موضوعية في هذه الفترة.

3- تعد الأم الكبيرة لابنتها الوالدة فرحة بأكملها (لا يصح أن تجزأ أو تقطع أو يشاركها فيها أحد) لتأكلها "جملها" وحدها، وكأنها رمز لملء الفراغ الذي تولد عن خروج الطفل (الداعم) كاملا، برمز كيان كامل أعدته أم الوالدة.

4- يتم إعطاء فرصة سبع أيام كفترة انتقالية تتعرف فيها الأم على ما حدث لعلها تتأكد - بصعوبة وفرحة معا - أن من كان بداخلها أصبح الآن منفصلا عنها، وهنا تقوم الرضاعة الطبيعية بدور رائع، ليس مجرد تغذية الطفل بما هو حقه الطبيعي، ولكن أيضا بالتدرج مع الأم، لقبول الواقع الجديد، من خلال الحركة اقترابا وابتعادا، الطفل ملتصقا بتديها يوصل إليها أنه مازال جزءا منها، لكنه ليس كذلك طول الوقت، فهو سرعان ما يبتعد، أو يُبعد بعد الرضعة، ربما أدى إلى إقناع الأم أولا أن الخروج ليس معناه الانفصال القاسي، وإنما هو يعني بداية رحلات حركية النمو ذهابا وإيابا!.

## طقوس السبوع

يأتى بعد ذلك دور احتفالية السبوع الرائعة، وقد قرأها على الوجه التالى:

بعد السماح للأُم بهذه الأيام السبعة لتتعرف من خلالها على ما حدث، يقوم الوعى (الشعبى/الأسرى) بما ينبغى لدعم ذراع الانفصال، بما يسمح أن يكون ذراع الوصل أسهل حركية وأنجح نداءً. يدرك الوعى الشعبى أن الوالدة مازالت لا تتبين واقع الانفصال بما يكفى، أو الأرجح أنها لا تريد أن تعترف به، (وقد تكون فى قرارة نفسها لا تريد أن تسمح به أن يتم جدا)، وفى نفس الوقت هى حريصة على أن يتمادى الانفصال إلى غايته ليرتد إليها وهكذا.

يمكن افتراض أنه فى الأحوال الأقل طبيعية أن بعض الأمهات، مع كل رضعة، يتصورن إمكان استعادة الطفل إلى الداخل، ومع كل تغيير (غيار) ملابس الطفل هى تستعيد السماح له بالتواجد منفصلا عنها، ومن هنا - مرة أخرى، تتعمق حركية **السماح والاسترجاع**، التى سوف تستمر بعد ذلك طول العمر كما سيأتى ذكره فى يوميات لاحقة.

اكتشفت أن طقوس السبوع قد صاغها الوعى الشعبى لمساعدة الأم على مزيد من الوعى الموضوعى بفعل الانفصال، كل طقوس السبوع تقريبا يمكن إجازها فى الفرض التالى:

"إنها لإبلاغ حواس (وحركة) الأم، أن ما كان بداخلها أصبح الآن منفصلا عنها، وأن عليها أن تقبل، ذلك وأن تتأكد من ذلك، وأن تفرح بذلك، فتسمح به لأنه بداية حركية تعيد إليها ما أجزته على مستوى آخر فى رحم الأسرة.

## نقرأ تطبيقات الفرض على الوجه التالى

أ- إن وضع الرضيع فى غربال تحمله الأم أثناء التجوال بالمنزل إنما يعلن للأُم أن مكانه لم يعد بالداخل (بشهادة الشهود الهائمين من حولها).

ب- إن دق الهون - مع الزغاريد والفرحة - إنما يبلغ سمع الأم أن هذا الكيان (الذى قد يبكى لسماع الدق) أصبح خارجا (بشهادة الشهود أيضا).

ج- إن اللف بالوليد فى أرجاء المنزل حجرة حجرة، يبلغ الأم أنه بالتأكيد أصبح خارجها، ليس فقط فى سريره (وأولفته) بجوارها، ولكنه أصبح خارجها فى كل مكان فى البيت.

د- ثم تأتى أهم خطوة حين يوضع الطفل على الأرض وتخطيه الأم ذهابا وجيئة سبع مرات، لعلها تتأكد المرة بعد المرة أنه أصبح، وبالرغم من أنه بين ساقبها، إلا أنه أصبح خارجها وأن الحركة الدؤوب، ذهابا وجيئة من جانبها أولا، ثم من جانبه لاحقا، هى التى سوف تنظم العلاقة وتؤكد الانفصال الطبيعى بينهما ليتخلق نوع آخر من التواصل الحركى الإيقاعى.

هذه هي بعض معاني تلك الطقوس الدالة، والتي حرمت منها كثيرات من أمهات اليوم، بلا أي مرير إلا التراجع عن عاداتنا سواء إهمالا أو تقليداً لعادات غيّرنا، أو نتيجة للافتقار إلى منطق نفعي جاهز واضح يبررها.

### دلائل من أعراض مرضية مألوفة في فترة النفاس

كثير ما يصيب الأم، في فترة النفاس أساساً، بعض الأعراض النفسية التي تصل إلى درجة المرض النفسي أحياناً، مما يمكن إرجاعه إلى خلل في التعامل مع هذه الحركية النمائية دخولا وخروجاً، أو من العجز عن استيعاب جدلية الانفصال/الاتصال، والعجز عن الإعداد لها، ومن ذلك:

أ- تصاب حوالي 60% من الوالدات بما يسمى "كآبة النفاس"، وهو نوع من الاكتئاب الطفيف العابر الذي يزول وحده - دون علاج عادة - خلال حوالي أسبوعين، وقد يكون رمزاً لآلام الفراق قبل التأكد من حميمية العلاقة الجديدة وروعيتها.

ب- قد يظهر على الأم صعوبة في تقبل الوليد (أحياناً حتى إعلان الكراهية أو رفض إرضاعه) مما يبدو كأنه نوع من الاحتجاج على هذه الخطوة، وكأن الوليد هو الذي عملها دون استئذان أمه.

ج- قد تصاب الوالدة بذهان النفاس بأنواعه مما قد يشير إلى نوع من اختلال التوازن، نتيجة للفراغ الذي نشأ من هذا الانفصال دون أن يتلقى بدعم تعويضي من الخارج، ودون استيعاب أنه ليس انفصلاً قسراً هجراً، بقدر ما هو إعادة تنظيم العلاقة من جديد.

د- حالات قتل (أو الشروع في قتل) الوليد تحدث مع الذهان الصريح عادة، أو بدون ذلك ليكون هذا القتل (أو الشروع فيه) هو المظهر الوحيد للذهان، وهو أقصى مظاهر رفض الانفصال، (الأمر الذي نشاهده في دراما القتل من الهجر في الحب عند الناضجين مع الهوس الغرامى: (مثال: قتل المرحومة ذكرى... وغيرها).

### دور الأب

يتجسد تهميش دور الأب في هذه الفترة تجسيدا واضحا بشكل يحتاج إلى مراجعة، ففي الوقت الذي يمكن أن يُقرأ هذا التهميش على أن دور الأب ثانوي في هذه المرحلة، يمكن أن يُقرأ على أنه تحميل للأُم أعباء زائدة مما قد يجرمها من العناية بكيانها المستقل، ليس فقط عن الأب، ولكن أيضاً عن الوليد.

بالرجوع إلى المنطلق الأساسي، وأن الأسرة هي الرحم الاجتماعي كمحيط حيوى حقيقى، يمكن أن نتبين أن للأب دوراً إيجابياً لا غنى عنه في إسهامه في تكامل هذا المحيط الحيوى، وأن قيام الأب بدوره في دعم هذا الكيان الأسمى (الرحم الاجتماعي) بدءاً بدعم الأم، يفسر كيف أن الأب الآن يُنصح

بحضور عملية الولادة، وأن يكون في المتناول طول الوقت، خاصة قبيل وبعيد الولادة، خاصة لو كانت الأم واعية - دون ألعاب التخدير والقيصرية - حتى تستوعب الأمان المحيط مهما بلغت الآلام الجسدية.

ويتمد دور الأب بعد ذلك بتنظيم مشاركته في دعم حقيقي بالوقت والفعل والإسهام العملي في تهيئته مناخ طيب لهذا الرحم الاجتماعي (الأسرة) البديل عن المكثف لرحم الأم إلى رحم الأسرة.

أما استمرار جدلية الانفصال/الاتصال بعد ذلك مدى الحياة، فهذا ما سنرجع إليه مادامنا نتواصل ونواصل.

كذلك سوف نواصل عرض معالم الوالدية وغيرها من الافتراضات الأساسية للأسرة من منطلق ثقافتنا خاصة.

- البيولوجي أيضا بالمعنى الأوسع.

### The Man & Evolution FORUM Web Site

<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/>

### Forum Subscription

[TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr](mailto:TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr)

### Mail To Forum Participate

[TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com](mailto:TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com)

### FORUM INVITATION

[www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf](http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf)